الاعجاز العلمى
فى القرآن

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : الاعجاز العلمى فى القرآن

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٥

الناشر : مركز الراية للنشر والإعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

الاشراف والمتابعة : كريم أحمد فكرى .

رقم الإيداع : 4860/2005

الترقيم الدولى : 977.354.091.x

كافة حقوق الطبع والنشر والتوزيع هى ملك لمركز الراية للنشر والأعلام ولا يجوز اقتباس أى جزء منها دون الحصول على موافقة خطية من الناشر.

كافة الآراء الواردة فى الكتاب ليست بالضرورة تعبر عن الناشر أو مركز الراية للنشر والاعلام بل تعبر عن وجهة نظر كاتبها .

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم يتناول كثيراً من الآيات الدالة على الإعجاز العلمى فى القرآن والتعريف بهذا المصطلح والألفاظ المرادفه له وأول من أطلق هذا اللفظ والتتبع التاريخى له وتعريف المعجزة فى اللغة والاصطلاح .

وضوابط التفسير العلمى فى القرآن الكريم والشروط التى يجب أن تتوافر فى فيمن يفسر القرآن الكريم ومعنى التفسير فى اللغة والاصطلاح وأصول التفسير العلمى المتفق عليها بين علماء المسلمين والفرق بين التفسير العلمى والإعجاز العلمى وقصة خلق الإنسان وقصة خلق السموات وما فيها من اعجاز والإعجاز فى خلق الكون .

وكيف تناول القرآن الكريم إعجاز خلق الكون ، وتذكير وتدبر لآيات القرآن التى تتناول أوجه الإعجاز العلمى .

نفع الله به والحمد لله القائل : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ②﴾ [الإنسان]

وهو سبحانه القائل : {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون}

المؤلف : بكر محمد إبراهيم

أولا - الإعجاز العلمى وتاريخه

تمهيـــد :

الحمد لله القائل : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء].

فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أعجز البشر فى بلاغته وأسلوبه وتشريعه وإخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلية وحقائقه التى أذعن لها العلماء.

قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ [سبأ].

وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت].

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعاملين بشبراً ونذيرا وجعل رسالته خاتمة الجميع الشرائع ..

أما بعد :

فإن إعجاز القرآن الكريم وإقامته الحجة على الناس أم لا يحتاج إلى استدلال لاعتراف الجميع به[1] فهذا الوليد بن المغيرة – وهو أحد صناديد الكفر – يقول واصفاً القرآن الكريم : (والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة وإن

---

(١) الكشاف للزمخشرى ٢/١ وانظر الفتح ٥٨٢/٦.

عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليحطم ماتحته وإنه ليعلو مايعلى)[١].

وقد تنبه المسلمون لأهمية الإعجاز فى القرآن الكريم فى وقت مبكر وأعطوه عنايتهم وكانت بدايات تلك الاهتمامات منصبة على الإعجاز البيانى[٢] لأنه الأظهر فى إقامة الحجة زمن النبىﷺ لما كان العرب يتمتعون به من فصاحة وبيان، ولذا كان القرآن الكريم فى إقامته للحجة عليهم بمثابة الآيات الحسية التى أعجز بها الأنبياء أقوامهم،

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت].

ويقول ﷺ مبينا هذا المعنى : (ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ..)[٣].

غير أن هذا الاهتمام لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين -رضى الله عنهم- وإنما جاء بعد ذلك لأسباب منها :

١- لمشاهدتهم أو قربهم من عجز الخصوم عن المعارضة وإذعانهم لتصديق القرآن، ثم انتهاء المعارضين بإسلام أهل الجزيرة العربية.

٢- لانشغالهم - رضى الله عنهم - بالدعوة والجهاد.

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/٢٢٨ وتفسير الطبرى ١٢/٣٠٩.
(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٠٥، ١٠٦ والاتقان للسيوطى ٢/٢٠٤.
(٣) رواه البخارى كما فى الفتح ٩/٣.

٣- لبعدهم عن القضايا الجدلية الشائكة التى لا ينبنى عليها عمل.

ولما وقعت الفتوحات الإسلامية ودخلت أمم جديدة فى الإسلام كالفرس والرومان .. وكانت لها حضاراتهم التى نقلوا بعضها إلى الثقافة الإسلامية ثم تُوسع فى ذلك حتى ترجمت كتبهم إلى العربية ودخلت مصطلحاتهم إلى تراثنا الإسلامى، فتصدى لهذا الوافد الجديد بعض العلماء بالرفض وعدم القبول بادىء الأمر(١).

إلا أن قوة هذا الاتجاه ودعم السلطة له وظهور علماء مؤمنين به مكن له حتى أصبح فيما بعد اتجاهاً عاماً، يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله فى هذا الصدد : (فى أيام المأمون كانت جميع المؤلفات توجد فيها عبارات واصطلاحات منطقية لا يفهمها إلا من له إلمام به ولا يفهم الرد على المنطقيين فيما جاءوا به من الباطل إلا من له الإمام بفن المنطق ..) .

ثم قال : (ولا شك أن المنطق لو لم يترجم إلى العربية ولم يتعلمه المسلمون لكان دينهم وعقيدتهم فى غنى عنه، كما استغنى عنه سلفهم الصالح ولكنه لما ترجم وتعلم .. كان ينبغى لعلماء المسلمين أن يتعلموه وينظروا فيه ليردوا حجج المبطلين بجنس ما استدلوا به(٢).

فلذلك قبل العلماء هذه المصطلحات واستعملوها بعد أن نقحوها مما يخالف المعتقدات الشرعية.

أما المصطلحات التى لم تكن معروفة قبل سواء منها ما يتعلق

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٩.

(٢) آداب البحث والمناظرة ص٥.

بالعقائد والأصول أو التفسير أو النحو أو البلاغة فهى أخف من ذلك، بل عدت سمة بارزة من سمات التجديد والإبداع الثقافى فى حضارتنا الإسلامية الواقعية وذلك لعدم مخالفتها أصول الشرع ومقاصده ولغته العربية، ومن تلك المصطلحات الكثيرة مصطلح (المعجزة والإعجاز).

الألفاظ المرادفة لهذا المصطلح :

رغم قرب هذا المصطلح - الدال على الأمر الخارق المقرون بالتحدى السالم عن المعارضة[1] - إلى الذهن إلا أنى لا يوجد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ دالا على هذا المعنى، وما وجد من مادة (عجز) فى القرآن والسنة لم أر فيه ما يدل على هذا المصطلح.

(الآية، البينة، البرهان، السلطان) وإليك بيانها مرتبة :

يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾ [الأنعام].

يقول ابن كثير رحمه الله فى تفسير الآية : يقول تعالى إخبارا عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أى حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ أى معجزة وخارق ﴿ ليؤمنن بها ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٩٦/١ وفتح البارى ٥٨١/٦ ورسائل إعجاز القرآن للرماتى والخطابى والجرجانى ص ٧٥.

وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ [الإسراء]

يقول ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى : وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة سألوا ذلك مثل سؤالهم فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجئ الآيات فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات لأنا لو أرسلنا بها إليهم فكذبوا بها سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم)(١).

وكذلك الحال بالنسبة (للبينة) كما فى قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود].

حيث يقول ابن جرير فى تفسيرها : (قال قوم هود لهود : يا هود ما أتيتنا ببيان ولا برهان على ما تقول فنسلم لك ونقر بأنك صادق فيما تدعونا إليه من توحيد الله والإقرار بنبوتك)(٢).

فنلاحظ أنه فسرها بالبرهان كما فى قوله تعالى مخاطبا رسوله موسى - عليه السلام - :

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ [القصص].

(١) جامع البيان ١٠٨،١٠٧/٩.
(٢) جامع البيان ٥٨/٧.

قال مجاهد والسدى رحمهما الله : هى إشارة إلى العصا واليد ... ويقول ابن عطية فى تفسيرهما : حجتان ومعجزتان[1].

أما السلطان فجاء فى قوله تعالى حاكيا عن الأمم السالفة قولها لأنبيائها عليهم السلام :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم].

يقول القرطبى : أى بحجة ظاهرة وكان هذا محالا منه، فإن الرسل مادعوا إلا ومعهم المعجزات[2] .

التتبع التاريخى لاستخدام المعجزة والإعجاز :

يمكن أن نتتبع ظهور هذا المصطلح واستخدامه حتى أصبح شائعا معروفا على النحو التالى :

أول من نسب إليه استخدام هذا اللفظ هو النظَّام البصرى المعتزلى المتوفى سنة ٢٣١هـ[3] .

ويظهر أنه مسبوق كذلك لأنه كان يقول بأن العرب عجزوا لصرفهم

(١) المحرر الوجيز ٢٨٧/٤.

(٢) تفسير القرطبى ٣٤٧/٩.

(٣) راجع لسان الميزان ٦٧/١ وفكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصى ص ٤٠، وإعجاز القرآن للباقلانى ص٢٧.

عن المعارضة[١] وهو مذهب باطل وأما أول من بحث هذه القضية وتصدى لها بالبحث – حسب المراجع المتوافرة – فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ[٢] .

يقول الأستاذ / عبدالكريم الخطيب : (يعتبر الجاحظ أول من تصدى لهذا الأمر وجعله موضوعا خاصا للنظر والدراسة)[٣].

وقد توسع الجاحظ فى مسألة سر الإعجاز والبلاغة، وهل ذلك عائد إلى نظم القرآن وأسلوب صياغته أم هو عائد إلى المعنى؟ وفصل فى ذلك ورجح[٤].

وهذا الصنيع يدل كذلك على أن المسألة كانت مطروقة قبل الجاحظ وقد تكون ألفت فيها كتب وإن لم تصل إلينا، إلا أن الجزم بذلك غير ممكن.

ولا شك أن الرجلين كانا علمين من أعلام المعتزلة إلا أن ذلك لم يمنع أهل السنة من بحث القضية باستخدام هذا المصطلح كما سيتبين إن شاء الله.

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لكمال الدينالزملكانى ص ٥٣ ورسائل الإعجاز ص ١٤٦ ويذهب مصطفى صادق الرافعى – رحمه الله – إلي أن أول من قال إن لفظ القرآن غير معجز هو : الجعد بن درهم – الزنديق المعروف – الذى قتل يوم النحر عام ١١٨هـ (إعجاز القرآن ص ١٤٣– ١٤٤ وميزان الاعتدال للذهبى ١/٣٩٩ والأعلام للزركلى ٢/ ١٢٠).

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٤٧٠ –٤٧٥.

(٣) إعجاز القرآن فى دراسات السابقين لعبد الكريم الخطيب ١/١٥٥ .١٥٦.

(٤) راجع حجج النبوة التى هى ضمن رسائله ص ١٤٤ نقلا عن كتاب عبد الكريم الخطيب السابق.

فقد استخدمه أبو الحسن الأشعرى[1] وتلميذه الباقلانى[2] وهما وإن تأثرا بمدرسة المتكلمين إلا أنهما قارعا المعتزلة وغيرهم بالحجة والبرهان، ورجوع الأشعرى إلى معتقد أهل السنة بجامع البصرة ثابت تاريخيا[3]. وممن صرح بهذا المصطلح واستعمله الخطابى[4] وابن حزم [5] وأبو بكر الجرجانى[6] والقاضى عياض[7] وابن عطية[8] وشيخ الإسلام ابن تيمية[9] وتلميذاه : ابن القيم[10] وابن كثير[11] وكذلك الشاطبى[12] وابن حجر[13].. وغيرهم.

واستمر استعمال هذا المصطلح عند علماء المسلمين من غير نكير كما يدل عليه هذا التمثيل الجزئى، فهو مستعمل عند المفسرين، فإن كنا لا نجد التصريح بالمعجزة عند شيخ المفسرين ابن جرير - كما يتضح من النقل السابق عنه، وبالرجوع إلى الآيتين :

---

(١) المتوفى سنة ٣٢٤هـ، وانظر : الملل والنحل للشهرستانى ١/١٠٣، والبداية والنهاية ١١/١٨٧.

(٢) المتوفى ٤٠٣هـ، انظر : وفيات الأعيان ص ١٦٩ وكتابه تمهيد الأوائل فى تلخيص الدلائل ص ١٥٠، ١٧٧.

(٣) راجع كتابه الإبانة ، والبداية والنهاية الإحالة السابقة.

(٤) هو الأديب الفقيه المحدث المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، تذكرة الحفاظ للذهبى ٢/٢٢٣ ورسالته فى الإعجاز ضمن مجموعة رسائل ص٩.

(٥) المتوفى سنة ٤٥٦هـ، الملل والنحل ص ١٥.

(٦) المتوفى سنة ٤٧١هـ، انظر كتابه ضمن الرسائل الثلاث السابقة ص ١١.

(٧) المتوفى سنة ٥٤٤هـ.

(٨) المتوفى سنة ٥٤٦ هـ، انظر تفسيره المحرر الوجيز ٤/٢٨٧.

(٩) انظر الفتاوى ٩/١٠٤،١٣/٢٨، ٣٤١، ١٤/٦٤، ١٧/٤٥، ٣٣/٤٢، ٤٣.

(١٠) طريق الوصول إلى عدم المأمول للشيخ عبدالرحمن ناصر السعدى ص ١٧٥.

(١١) تفسيره ٢/٢٦٣.

(١٢) الموافقات ٢/١٨١، ١٩٥.

(١٣) فتح البارى ٦/٥٨١، ٥٨٢.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة][١].

حيث إنهما أول مناسبة تتعلق بالإعجاز (وإن كان ذكر مادة الإعجاز هنا)- إلا أننا نجدها صريحة عند من جاء بعده من المفسرين، وهو موجود عند علماء الحديث كذلك، كما يتضح من النقل عن الخطابى وابن حزم وعياض وابن تيمية وابن حجر - رحمهم الله -.

أما أهل الأصول[٢] والعقائد[٣] وأهل البلاغة[٤] فإنهم أفاضوا فى استعمال هذا المصطلح أكثر من غيرهم، ويظهر أن فكرة فن البلاغة تابعة من الخوض فى مسألة الإعجاز كما يذهب إلى ذلك الأستاذ نعيم الحمصى حيث يقول : (ولا ريب أن فكرة إعجاز القرآن كانت من أقوى البواعث على نشأة علم البلاغة إن لم تكن أقواها جميعا)[٥].

تعريف المعجزة والإعجاز فى اللغة والاصطلاح ومدى مطابقة ذلك للمعانى الواردة فى القرآن الكريم :

يقول ابن منظور: يقال عجز بعجز عن الأمر إذا قصر عنه -وضعف- والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام[٦] ويقول ابن حجر : المعجزة

(١) انظر تفسير ابن جرير ١/١٦٥، ١٦٦.
(٢) الموافقات للشاطبى، الإحالة السابقة.
(٣) العقيدة الطحاوية ص٥٥٨ ، ٥٥٩.
(٤) دلائل الإعجاز للجرجانى ص ١٩٧، وانظر الرسائل الثلاثة المحال إليها سابقا.
(٥) فكرة إعجاز القرآن ص ٤٥.
(٦) مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٢٣٢، ولسان العرب ٥/٢٧٠.

اسم فاعل من الإعجاز وسميت بذلك لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة أو صفة محذوف

والمعجزة فى الاصطلاح : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة(١).

وإعجاز القرآن يقصد به إعجاز الناس أن يأتوا بسورة مثله مع شدة عداوتهم وصدهم عنه(٢).

أما الإعجاز العلمى فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبى وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية فى زمن النبى ﷺ(٣).

الخلاصـة :

تبين من الدراسة السابقة أن إطلاق المعجزة والإعجاز مصطلح شائع وصحيح وذلك لما يأتى :

١- كان من الأولى أن يوضع لهذا المعنى واحد من تلك الألفاظ الوارد فى القرآن كمصطلح دال عليه.

٢- إن معجزة رسول الله ﷺ خالدة ومتجددة بخلاف المعجزات السابقة التى كانت تنتهى بانتقال أولئك الأنبياء عليهم السلام إلى جوار ربهم.

(١) فتح البارى ٥٨٢/٦.
(٢) المرجع السابق.
(٣) راجع: تأصيل الإعجاز العلمى ص ١٤

٣- إن معنى هذا المصطلح الذى هو (الإعجاز) مسلم اتفاقا، وهو عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثل سورة من القرآن.

٤- صحة التعبير بهذا المصطلح من الناحية الشرعية واللغوية لأصالته وقوة دلالته على المعنى المراد(١).

٥- استخدام علماء المسلمين عبر التاريخ الإسلامى لهذا المصطلح وأمثاله من المصطلحات الشائعة من غير نكير أو مشاحة بل وتقديم تلك المصطلحات المتعارف عليها على غيرها عند التعارض لأنها أصبحت حقائق عرفية(٢) مع أنها لم تكن معروفة فى عصر الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين.

٦- أنه يلزم من نقض هذه المصطلحات وإعادة بناءها- على فرض تسليم إمكان ذلك- الوقوع فى الحرج والفوضى العلمية لاستقرار هذه المصطلحات فى التراث الإسلامى وفى أذهان العلماء والمثقفين.

٧- إن علماءنا رحمهم الله كانوا واقعيين حيث وضعوا هذه المصطلحات لما استجد فى الثقافة الإسلامية فى زمنهم ووضعوا لها شروطاً وضوابط لتدل على المراد منها من غير معارضة لأصل آخر، فهل استطعنا أن نفعل ذلك لما جد فى حياتنا الثقافية اليوم رغم كثرة الجامعات والمجامع اللغوية ومراكز البحوث واستخدامات الحاسب الآلى المتطورة؟ أم

(١) بل إن أصل المادة (عجز) وارد فى القرآن الكريم فى أكثر من موطن.

(٢) انظر المستصفى للغزالى ١٤٩/١، وشرح الكوكب المنير ١٤٩/١، ونشر الورود ج ١٥٦/١ عند قول الناظم

واللفظ محمول على الشرعى إن لم يكن فمطلق العرفى

فاللغوى على الجلى ....

لا زلنا عاجزين عن ذلك، مما يجعل بعض المثقفين والدارسين يبحثون عن مصطلح إسلامى يناسب بعض المصطلحات الأجنبية الوافدة فيعز عليهم وجوده ؟ ولا شك أن لغتنا العربية وثقافتنا الإسلامية قادرة على استيعاب ذلك كما قال حافظ إبراهيم رحمه الله على لسان العربية :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

٨- وأخيرا فأياما كان الحديث أو المتحدث - من مثل ماسبق - فإن هناك حقيقة تحتفظ لنفسها بحق البقاء ألا وهى : إن أى لفظة لغوية - تحقق المعنى الذى تؤديه فى استعمالها- حق يسوغ لأى إنسان أن يستعملها فى أى عصر وفى أى زمان لا يضيره ولا يضيرها أن يستوفى استعمالها سابق ولا لاحق، أو تخصص كرمز أو مصطلح عند صاحب فن أو صاحب علم .. فكما كان اللفظ حقا شائعا مباحاً لهؤلاء وغيرهم فإنه يظل حقاً مكتسباً متسعاً لكل طالب أو راغب بشرط أن يؤدى رسالته فى إطار المعنى المراد وإذا كانت بعض الألفاظ غير العربية أوردها القرآن فى بعض آياته(١). وهو الكتاب العربى المبين، ألا بعد ذلك أصلا دالاً على أن تعريب الألفاظ واستخداماتها بوضوح فى الدلالة على المراد منها يكسب الكلمة الفصاحة والبيان ؟ وهل يسوغ بعد هذا الاعتراض على استخدام مصطلح دال على معناه بوضع التخاطب ! إن الأمر سهل ولا يحتاج إلى هذا التكلف أو التحكم. والله أعلم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٧/١٠ وإرشاد الفحول ص ٣٢.

ثانيا : ضوابط الإعجاز العلمى

في القرآن والسنة

تعريف الحقيقة العلمية وشروطها:

الحقيقة العلمية مركب إضافى، ولتعريفها يلزم التعريف بجزأيها:

فالحقيقة : مفرد وجمعها حقائق، تقول : حق الأمر يحِق ويحُق حقاً وحقوقاً إذ صار حقاً ثابتاً(١).

والحق : نقيض الباطل، والشىء المتحقق وجوده(٢) وأصله المطابقة(٣).

وعرفها الراغب الأصفهانى بقوله : الحقيقة تستعمل تارة فى الشىء له ثبات ووجود(٤)، أو هى الشىء الثابت قطعاً ويقيناً(٥) والتاء فيها للتأنيث.

وأما العلمية فهى صفة للحقيقة، والعلم نقيض الجهل(٦).

وتعريف العلم في الاصطلاح : هو إدراك الأشياء على حقائقها(٧) والمقصود به هنا : العلم التجريبى.

والحقيقة العلمية فى الاصطلاح هى : المفهوم الذى تجاوز المراحل

---

(١) النهاية فى غريب الحديث ٤١٥/١، واللسان ٥٢/١٠.
(٢) المرجع السابق ٤٨/١٠.
(٣) نفس المرجع ٥/١٠.
(٤) المفردات للراغب الأصفهانى ص ١٢٦.
(٥) اللسان ٤١٧/١٢.
(٦) التعريفات للجرجانى ص ٩٠.
(٧) التعريفات ص ١٥٥ وتأصيل الإعجاز فى القرآن والسنة ص١٤.

الفرضية والدراسات النظرية حتى أصبح ثابتاً مجمعاً عليه من قبل كافة العلماء المختصين كتمدد المعادن بالحرارة، وانكماشها بالبرودة، وتبخر الماء عند درجة مئوية تحت الضغط الجوى العادى، وتجمده عند درجة الصفر المئوى(١).

تعريف الفرض والنظرية :

الفرض : هو تخمين واستنتاج ذكى يصوغه ويتبناه الباحث مؤقتاً لشرح بعض ما يلاحظه من الحقائق والظواهر.

والنظرية : توضيح علاقة الأثر والسبب بين المتغيرات وذلك لشرح ظواهر معينة، والنظريات مراتب بحسب قربها وبعدها من الحقائق، وأقوى النظريات هى تلك التى تقدم شرحاً أكثر منطقية لتلك الملاحظات(٢) .

إن النظرية السلمية التى يتم الوصول إليها فى دراسة علمية لايمكن اعتبارها حقيقة نهائية، وإنما تمثل أفضل إجابة يمكن الوصول إليها، وهى قابلة للتغيير وإحلال أخرى محلها، ولذا كان من ضوابط الإعجاز وجود الحقيقة العلمية الناصعة وعدم ربط آى القرآن الكريم بالنظريات القابلة للتبديلوالتغيير.

(١) مقدمة التاريخ الفكرى العلمى فى الإسلام (سلسلة عالم المعرفة ١٣١ ط الكويت) بواسطة بحث الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم د/ناول عبدالهادى ص ٩، وانظر النظريات العلمية ونظرية التطور للبروفيسور أ. هـ اندروز ص ٢٣ ط بغداد.

(٢) أصورل البحث العلمى ومناهجه، د/أحمد بدر، ص ٧٤.

ضوابط استخراج وجهه الإعجاز بين النص والحقيقة :

إن المراد بهذه الضوابط تلك القواعد التى تحدد مسار بحوث الإعجاز العلمى وفق الأصول الشرعية المقررة مع الالتزام بالجوانب الفنية والعلمية المطلوبة.

وتكمن أهمية هذه الضوابط فى كونها مناط استرشاد للباحثين في الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، وخصوصاً فى هذا الوقت الذى كثر فيه إقبال الباحثين والكاتبين على هذا الموضوع لأهميته فى الدعوة والإقناع، وذلك لتميز هذا العصر بالعلم ومكتشفاته، حتى أصبح العلم سمة من سماته.

وهذا الاهتمام من غير سير على ضوابط واضحة أوجد مزالق كثيرة حتى عند بعض المخلصين، ومساهمة فى علاج ذلك جاءت هذه الضوابط علها أن تكون مانعاً من الوقوع فى تلك الأخطاء، وحافزا للكتابة فى هذا الموضوع الحيوى.

والتزام هذه الضوابط يساعد كذلك على إنهاء الخلاف الفكرى بين المؤيدين لموضوع التفسير العلمى والمعارضين له، لأن جوهر الخلاف بينهم يرجع سببه إلى تلك المظاهر الارتجالية التى لا يصدر أصحابها عن منهج صحيح، وتلك الضوابط هى :

أ) وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية فى النص القرآنى أو الحديثى بشكل واضح لا مرية فيه.

ب) ثبوت النص وصحته إن كان حديثاً لتواتر القرآن دون الحديث .

جـ) ثبوت الحقيقة العلمية ثبوتاً قاطعاً وتوثيق ذلك توثيقاً علمياً متجاوزة مرحلة الفرض والنظرية إلى القانون العلمى.. فإذا تم ذلك أمكنت دراسة القضية لاستخراج وجه الإعجاز، ويجب فى أثناء تلك الدراسة مراعاة الضوابط التالية.

١- جمع النصوص القرآنية أو الحديثية المتعلقة بالموضوع ورد بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شىء من تلك النصوص بل يؤيدها.

٢- جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالموضوع إن وجدت، وكذلك روايات الحديث بألفاظها المختلفة.

٣- معرفة ما يتعلق بالموضوع من سبب نزول أو نسخ، وهل يوجد شىء من ذلك أو لا؟

٤- محاولة فهم النص الواقع تحت الدراسة على وفق فهوم العرب إبان نزول الوحى وذلك لتغير دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضى الأمر الإلمام بمسائل تعين على فهم النص والتمكن من تقديم معنى على آخر، وهى كالآتى :

أ) إن النص مقدم على الظاهر والظاهر مقدم على المؤول(١).

---

(١) التعريفات للجرجانى ص ٢٨ وتقريب الأصول لابن جزىء بتحقيق الدكتور/ محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين ص ٤٧٣ ، ١٦٢ .

ب) إن المنطوق مقدم على المفهوم وإن المفاهيم بعضها مقدم على الآخر كذلك.

جـ) أن يخضع فى تناوله للنص لقاعدة : العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين[1] وأن العموم مقدم على الخصوص والإطلاق مقدم على التقييد، والإفراد على الاشتراك، والتأصيل على الزيادة، والترتيب على التقديم والتأخير، والتأسيس على التأكيد، والبقاء على النسخ، والحقيقة الشرعية على العرفية، والعرفية على اللغوية[2].

د) مراعاة السياق وعدم اجتزاء النص عما قبله وما بعده .

هـ) مراعاة قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و) معرفة معانى الحروف وعدم تفسير حرف أو حمله على معنى لا يقتضيه الوضع العربى.

ز) مراعاة أوجه الإعراب وعدم القول بتوجيه لا يسانده إعراب صحيح أو قرينة أخرى.

حـ) أن المشترك اللفظي يمكن حمله على واحد من معانيه دون نفى الآخر أو القطع بأن هذا هو الصواب وحده ما لم تكن هناك قرينة راجحة.

٥- إظهار وجه الإعجاز: فإذا تم ذلك لم يبق على الباحث سوى أن يظهر الربط بين الحقيقة الشرعية والعلمية بأسلوب واضح مختصر.

(١) الاتقان فى علوم القرآن ٣/٩٥، ٩٨.
(٢) الاتقان ٣/٤٢ . ٩١، ٥٣ وروح المعانى للآلوسى ٦/١.

٦- أن هناك أموراً من قبيل المتشابه لا مجال لفهمها أو تناولها بالبحث.

٧- عدم البحث فى الأمور الغيبية كموعد قيام الساعة وبداية الخلق والجنة والنار ...(١) .

٨- عدم الاعتماد على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة(٢) .

٩- الاعتماد على المصادر المعتبرة فى ذلك دون غيرها كأمهات التفسير والحديث وكتب غريب القرآن والسنة، مع الإشارة إلى جهود الدراسات السابقة إن وجدت.

١٠- الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل لأن القرآن والسنة خطاب للبشرية فى كل عصر، والكل يفهم منهما بقدر ما يفتح الله به عليه، وبحسب ما يبذله من جهد وما هو متوفر لديه من وسائل، ولن يحيط بفهم الوحى أهل عصر إلى قيام الساعة، فلا مجال للتسفيه والتجهيل وإنما هى الاستفادة والتكميل. والدعاء لمن تقدم

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

بل الواجب اتباع فهم السلف رضى الله عنهم، وخصوصا الصحابة رضوان الله عليهم لأنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى

(١) راجع الملحق الخاص بذلك.

(٢) ومن المراجع فى ذلك : مغنى اللبيب لابن هشام، ومعانى الحروف للرمانى، ومباحث الحروف فى كتب اللغة والأصول وكتب التفسير كالكشاف والبحر المحيط وروح المعانى.

اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم(١).

فهم العمدة العدول بخبر الله تعالى ، وعنهم أخذ التابعون وعلى نهجهم ساروا، فمن عدل عن تفسيرهم إلى ما يخالفه كان مخطئا بل ومبتدعاً لأنهم كانوا أعلم بتفسير كتاب الله من غيرهم وأورع وأتقى(٢).

١١- ينبغى أن تحصر الدراسة فيما تمكن القدرة عليه فالأفراد يمكن أن يصروا بحوثهم فيما يتعلق بالاكتشافات فيما هو خاضع لتجاربهم المخبرية ليصلوا من خلال ذلك إلى الحق، وللجامعات والمراكز والدول مجالات أكثر وأكبر.

١٢- ينبغى أن يعلم الباحث فى هذا المجال أن كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ صدق وحق ولا يمكن بحال أن يخالف حقيقة علمية لأن منزل القرآن هو الخالق العالم بأسرار الكائنات،

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك].

ومعرفة ذلك تقتضى منا التريث وعدم تحميل النص مالا يحتمله من أجل أن يوافق ما نظنه حقيقة، فإذا لم يتيسر ذلك بشكل واضح فعلينا أن نتوقف دون نفى أو إثبات ونبحث عن موضوع آخر والزمن كفيل بانكشاف الحق بعد ذلك.

---

(١) الدين والعلوم العقلية تأليف عبد البارى الندوى، تعريب واضح رشيد الندوى ص ١٠.

(٢) راجع فى هذا الموضوع كتاب الإسرائيليات والموضوعات لفضيلة الشيخ ابى شهبة رحمه الله.

١٣- علي الباحث أن يتحرى الصدق والصواب وأن يخلص نيته لله فى تبيين الحق للناس من أجل هدايتهم وأن يعلم خطورة ما يتناوله ويعبر عنه فهو عندما يقول : هذا المعنى هو الذى يشير إليه قوله تعالى، فهو يفسر كلام رب العالمين، لذا يجب عليه أن يتكر دائماً قول النبى ﷺ : (من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)[١].

١٤- ينبغى أن يتصف الباحث كذلك بالصبر مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة حتى يميز الحق من الباطل ويقبله ويلتزم بالموضوعية، ومعناها هنا: حصر المعلومات ودراستها من غير تحيز لفكرة أو رأى سابق مع التقيد بالمنهج العلمى فى التوثيق والاقتباس والإحلالات[٢].

التفسير فى اللغة والاصطلاح :

التفسير مشتق من السَّفْر وهو الإبانة والكشف[٣] والتفسير مثله[٤] .

أما فى الاصطلاح فله تعريفات منها، تعريفه بأنه : علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[٥].

وهذا التعريف شامل لأنواع التفسير كلها، سواء ما كانت عنايته ببيان الألفاظ والتراكيب أو ما عنى باستخراج الأحكام والحكم، ومن هذا الأخير التفسير العلمى الذى يتناول العلوم الكونية والصنائع والمعارف كعلم

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ١/٧.
(٢) محاسن التأويل للقاسى ١/٢١ . ٢٢.
(٣) رواه الترمذى وقال، هذا حديث حسن صحيح، ٥/١٩٩ رقم ٢٩٥٠.
(٤) كتابة البحث العلمى صياغة جديدة للدكتور/عبد الوهاب أبو سليمان ص ١٩ . ٢٠.
(٥) القاموس ٢/١١٤.

الهندسة والحساب والهيئة والاقتصاد والاجتماع والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وعلم طبقات الأرض(١).

التفسير العلمى :

هو اجتهاد المفسر فى كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبى على وجه يظهر به إعجاز القرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان(٢). وأجود منه وأعم تعريفه بأنه : الكشف عن معانى الآية أو الحديث فى ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية(٣).

حكم التفسير العلمى :

وقع الخلاف فى هذا النوع من التفسير بين العلماء من فترة طويلة ولازال الخلاف قائماً حتى هذه الساعة. والصواب فى المسألة -والله أعلم- أن هذا جائز لأنه من قبيل التفسير بالرأى وهو جائز إذا تمت مراعاة الشروط الآتية إضافة إلى ماسبق ذكره من شروط، وهذه الشروط هى :

١- معرفة قواعد التفسير.

٢- معرفة أدوات اللغة وقواعد النحو والأصول.

٣- الفهم الذى يقذفه الله تعالى فى قلوب من يشاء من عباده الصالحين من خلال تدبرهم لآيات الكتاب العزيز(٤).

---

(١) اللسان ٥/٥٥، الإتقان ١٦٧/٤.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٦٩/٤ والبرهان ١٣٤/١ والتعريفات للجرجانى ص ٦٣.

(٣) التفسير العلمى للقرآن فى الميزان للدكتور/ أحمد عمر أبو حجر ص ٦٤.

(٤) اتجاهات التفسير فى القرآن الرابع عشر لفهد الرومى ٥٤٩/٢.

٤- أن لا يجزم المفسر أن هذا هو معنى النص القرآنى، وأن ما عداه خطأ - كما يفعل كثير من الباحثين - بل يقرر ما يراه - بعد توفر الشروط - للاستشهاد به على وجه لايؤثر على قدسية النص القرآنى لأن تفسير القرآن بنظرية قابلة للتغير يثير الشكوك حول القرآن للناس عندما يظهر خطأ تلك النظرية(١).

فاللازم أن يسأل الله العون والهداية ويبين أن ماتوصل إليه بفهمه، فإن كان صحيحاً مقبولاً فذلك من الله وإلا فالقرآن منزه عن التناقض والخطأ.

أصول التفسيرالمتفق عليها عند علماء المسلمين :

ينبغى أن نعلم أن العلماء متفقون على منهج لفهم كتاب الله فلا يمكن تجاهله أو تخطيه بل لابد من اتباعه ، وهو :

١) أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل فى مكان فإنه قد فصل فى موضع آخر، وما اختصر فى موضع فقد بسط فى موضع آخر(٢).

٢) أن يفسر القرآن بالسنة الصحيحة(٣) لقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل].

(١) تأصيل الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة - إصدار هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ص ٢٥.

(٢) حيث إن منهم من منع مطلقا كالشاطبى ومن وافقه كأبى حيان وانتهاء بمحمود شلتوت ومحمد حسين الذهبى ومن وافقهم. ومنهم من أجازه كأبى حامد الغزالى والرازى ومن المتأخرين الجواهرى ومحمد مصطفى المراغى والقاسمى ... على تفاوت فيما بينهم فى المنع والإباحة، راجع تفصيل ذلك فى اتجاهات التفسير فى القرن الرابع عشر ٢/٥٦٤- ٦٠٤.

(٣) ابن جزى ومنهجه فى التفسير العلمى، على بن محمدالزبيرى ٥٩٦/١.

ولقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء].

ولهذا قال رسول الله ﷺ : (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه)[١] يعنى السنة.

٣) أن يفسر القرآن بأقوال الصحابة الصحيحة المتفق عليها معنى فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التى اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم.

٤) أن يفسر القرآن بأقوال التابعين الصحيحة المتفق عليها معنى لأنهم تلقوها عن الصحابة[٢].

٥) الأخذ بمطلق العربية لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين، ولذا قال مالك – رحمه الله – : لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا[٣].

٦) التفسير بمقتضى الشرع دون الأخذ بمجرد الرأى[٤] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– فى مقدمة التفسير : (وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن والحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن

(١) اتجاهات التفسير ٢/٦٠٤.

(٢) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٤/١٧٤. ومن مراجع ذلك تفسير: أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ/ محمد الأمين الشنقيطى، وتفسير ابن كثير.

(٣) الإتقان ٤/١٨٠.

(٤) المسند ٤/١٣١، وانظر رسالة الإمام الشافعى ص ٣٢ الفقرة ٩٦ فما بعدها.

الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله ملحد فى آيات الله محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام)(١).

وهو – رحمه الله – يقصد بها من يخالف ما هو ثابت، أو يتكلم بغير علم، بدليل قوله بعده : فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلاحرج عليه(٢).

الفرق بين التفسير العلمى والإعجاز العلمى :

الذى يظهر أن التفسير العلمى بحسب الإطلاق أعم من الإعجاز العلمى، فكل إعجاز علمى فهو من قبيل التفسير العلمى دون العكس.

هذا من حيث العلاقة بينهما، أما من حيث وضعهما كمصطلحين فيمكن أن تفرق بينهما بما يأتى :

١- الإعجاز العلمى خاص بما يتعلق بالتوفيق بين الحقائق الشرعية والحقائق الكونية، والتفسير العلمى بتناول النظريات والإشارات الضمنية.

٢- أن الإعجاز العلمى متفق عليه بين أهل التفسير، والتفسير العلمى مختلف فيه، بل إن من العلماء من يحرمه(٣).

٣- أن التفسير العلمى – إذا لم تراع ضوابطه وشروطه – يكون

---

(١) المستدرك للحاكم والإتقان ١٨١/٤، ومحاسن التأويل ٢١/١ ، ٢٢.
(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان كما فى الإتقان للسيوطى ١٨٢/٤، وانظر الموافقات للشاطبى ٢٩١/٣.
(٣) الإتقان ١٨٢/٤ ومحاسنالتأويل للقاسى ٩٨/١.

سبباً فى وقوع الخطأ فى فهم كتاب الله تعالى لسعة مجاله، ولذا فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين انحرفوا فيه عن الصواب فوقعوا فى أخطاء شنيعة عندما حاولوا ربط فهومهم للوحى بنظريات وفروض خاطئة(1).

أما الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة فهو أوضح من ذلك وأبعد، والخطأ فيه أقل إذ أنه غالباً ما يكون فى عدم الربط بين الحقيقة الشرعية والكونية، إلا أن كثيراً من الباحثين لا يفرقون بين الإعجاز العلمى والتفسير العلمى.

وبمراعاة ذلك يحصل الإعجاز ويظهر صدق الله وكتابه ورسوله ﷺ للناس جميعاً، وبذلك يتم الانسجام بين الآيات الشرعية والكونية، وفى ذلك دعوة إلى الإيمان، كما أن فيه إثبات صلاحية الكتاب والسنة لكل زمان ومكان.

وليس المراد من هذه الضوابط الحجر على الباحثين أو منعهم من التدبر فى كتاب الله، وإنما هو محاولة لضبط مسيرة البحث وإرشاد الباحثين المسلمين إلى الطريق الصحيح لفهم كتاب الله تعالى فى هذا الجانب المهم (الإعجاز العلمى، والتفسير العلمى) ويمكن للباحث غير المتخصص أن يراجع أهل الاختصاص فيما يخفى عليه أو يشترك مع متخصص من أجل الوصول إلى الحق، بعيدا عن تقليد الآخرين وترديد أقوالهم.

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٤٣/١٣، ومقدمة تفسير ابن جرير الطبرى للشيخ أحمد شاكر ٧٤/١.

قصة الخلق[1]

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة].

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

---

(١) تيسير كمال - الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم - دار الروضة .

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن
شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ
فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا
عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي
لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا
الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن
لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف].

قال تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلاَّ
إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ
السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ
﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ
رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ

الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر].

ومضات :

– الله تعالى هو الخالق المبدع، وهو الواسع العليم، الحكيم الفعال لما يريد خلق الأرض ثم خلق آدم، ووضع لكل منهما نواميس وموازين تتواءم وتتلاءم لتصلح حياة آدم على الأرض، ولتصلح الأرض بحياة آدم فيتجلى بذلك إعجاز الله تعالى فى خلقه ودقة صنعه.

– إن فى تعليم الله لآدم أسماء الأشياء كلها ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ إشارة دقيقة إلى قدرة الإنسان على الوصول إلى درجات عليا من المعرفة والكمال، وإلى أهمية العلم وضرورته للحياة الإنسانية حسب المنهج الإلهى.

– أعطى الله آدم القدرة على الكلام منذ خلقه وعلمه ﴿قال يا آدم أنبئهم﴾.

– كرم الله الإنسان المؤمن بالله، الممتثل لأمره، على سائر مخلوقاته بما فيهم الملائكة والجن، ولذلك أمرهم الله بالسجود لأبى البشرية آدم –عليه السلام– سجود تكريم. وتقدير، للروح الإلهية المودعة فيه، وللعلم الذى أكرمه الله به، فسجدوا إلا إبليس أبى .

- دأب الملائكة وشغلهم الشاغل التسبيح لله، وتتريهه عن كل مالا يليق بذاته القدسية.

- عرض الله تعالى علينا فى الآيات السابقة صورتين متشابهتين فى البداية متعارضتين فى النهاية، هما صورتا آدم المذنب، وإبليس المتمرد فاشتركت الصورتان فى أنهما تمثلان مخالفة لأمر الله تعالى، إلا أن الأولى انتهت باعتراف آدم بذنبه وطلبه الصفح والغفران من الله تعالى، بينما انتهت الثانية باصرار إبليس على ذنبه وتماديه فى غيه، ولذا فقد نال آدم العفو والمغفرة من الله الغفور الرحيم، واستحق إبليس الوعيد والعقاب من الله الشديد العذاب، وهكذا فالبشر جميعا لهم مطلق الاختيار لأحد النموذجين فى سلوكهم فى هذه الحياة ولاشك أنه سينال الجزاء الذى يتناسب مع اختياره.

- من تواضع لله رفعه، ومن تكبر عليه وضعه.

- إن الله عز وجل يقبل التوبة من عباده المنيبين إليه، ويحفهم برحمته إن كانوا صادقين فى الرجوع إلى بابه، ملتزمين بآداب التوبة بين يديه.

فى رحاب الآيات :

خلق الله تعالى الأرض وأودع فيها ما شاء من أسباب الحياة والنعيم، فأبدع خلقها وأحسنه، وكانت الملائكة - بتسبيحها وتقديسها لله تعالى - ترى لنفسها مكانة خاصة عنده، فلما خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، أخبر الملائكة أنه سيجعل من ها المخلوق خليفة له فى الأرض، فتعجبوا من أمر استخلافه عليها بعد أن أدركوا -بعلم الله- ما سيكون عليه حال ذرية

آدم من فساد فى الأرض وسفك للدماء، وعلى الرغم من معرفتهم وإدراكهم لطبيعة البشر فقد تعذر عليهم إدراك الحكمة من خلقهم، وهى أن الله تعالى أراد أن يودع الأرض لدى هذا المخلوق الفريد ويملكه زمامها، ويطلق يده فيها، ليكل إليه من وراء ذلك مهمة إظهار إعجازه تعالى فى الخلق والإبداع، وكشف ما اختزنته هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله - بإذن من الله - فى المهمة الجليلة التى أولاها الله له، وهى بناء هذه الأرض وعمارتها، وتحقيق إرادة الخالق فى تطويرها وترقيها،

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود].

(استعمركم فيها: أى كلفكم بإعمارها). ولهذا فقد جاءهم القول الفصل من الله تعالى : ﴿إنى أعلم مال تعلمون﴾ ليضع حدا لتساؤلاتهم واستفساراتهم.

ويُستشف من سياق هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى خلق الجن من نار ثم خلق آدم من طين، ووهبه من العلوم ما لم يهبه لغيره من خلقه، فعلمه أسماء الأشياء والأجناس وغيرها مما شاء، وبذلك شرفه ورفعه إلى مكانة سامية. وفى هذا تشريف للعلم والعلماء، ورفع لمكانة العابد العالم على العابد الجاهل.

والملائكة ما خلقوا إلا ليعبدوه -عز وجل- ويسبحوه وينفذوا ما يوكل إليهم من مهمات محددة، بينما خُلق آدم وبنوه ليسلكوا سبل العلم الموصلة إلى معرفة الخالق، وعبادته حق العبادة.

وتعرض الآيات صورة الاختبار الذى أقام فيه تعالى الحجة البينة على ملائكته بسعة علمه، وتفرده فى تصريف شؤون خلقه، وذلك قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم، وفى ها درس تعليمى لطيف فى آداب المناظرة وتصريف الأمور، فالله تعالى مع استغنائه عن إقامة الحجة والدليل لمخلوقاته على شمولية علمه، لم يمنعهما عن ملائكته تكريما لهم، وتعليما للناس كى يحسنوا محاكمة الأمور من جهة، ولكى يحلم قويهم على ضعيفهم، ويتواضع كبيرهم لصغيرهم ويأخذه بالرفق والحكمة من جهة أخرى.

فقد عرض الله تعالى على الملائكة أشياء ثم أمرهم أن يخبروه بأسمائها فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، واعترفوا بعجزهم وبأنه لا علم لهم إلا ما علمهم إياه، وعند ذلك أمر عز وجل آدم أن يخبرهم بالأسماء التى يجهلونها، فلما أخبرهم أدركوا السر فى خلافة آدم وذريته.

لقد كان ذلك السر يكمن فى صلاحية البشر للاشتغال بالماديات التى لا تقوم الدنيا إلا بها، وذلك لأن المادة جزء من أجزاء تركيبهم الخلقي، فقدخلق آدم -عليه السلام- من تراب، فاختلف بهذه النشأة هو وذريته عن الملائكة، وعلى أساس هذا الاختلاف اختلفت الحكمة فى خلق كل منهما.

فبعد أن أقيمت الحجة على الملائكة بسعة علم الله، وعظيم حكمته فى وضع علمه حيث يشاء،

قال تعالى لهم : ﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ ،

ثم أمرهم وإبليس أن يسجدوا لآدم، سجود تحية وتكريم، واحترام

وتقدير، للقدرة الإلهية المودعة فيه، لا سجود عبادة وتقديس وتعظيم، فامتثلوا للأمر جميعاً، عدا إبليس -وهذا الاسم معناه الآيس البعيد من رحمة الله- الذى عصى أمره تعالى بالسجود لآدم حسداً واستكباراً، واعتد بأصل تكوينه وهو النار،

فقال لربه متبجحا ومغتراً : ﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ فباء بغضب من الله لارتكابه خطيئتين من أكبر الخطايا، أولاهما : عصيان أمر الله تعالى والإصرار على هذا الذنب، والثانية : التكبر والاعتداد بمادة خلقه مقارنة بمادة خلق آدم، جاهلا بأن مكونات التراب أفضل من تكوين النار، وأن عناصر التراب لا ينجم عنها إلا الخير، وأن فى النار قوى مهلكة ومدمرة، وأصبح بعصيانه وإصراره مخلوقا لا يستطيع العمل إلا فى اتجاه واحد وهو الشر المطلق.

وبهاتين الخطيئتين استحق إبليس العقوبة العادلة من الله تعالى، وهى الهبوط من الجنة التى كان فيها، وخروجه من دائرة الرحمة الإلهية. وعند ذلك طلب من ربه أن يمهله إلى يوم القيامة ليثأر من آدم وذريته بإغوائهم فأجابه تعالى إلى طلبه : ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ فلما أخذ الوعد من الله بذلك، واستوثق من الإمهال أخذ يتمادى فى العناد والتمرد على خالقه، وأقسم بعزة الله ليفسدن فى الأرض عن طريق إضلال ذرية آدم وتزيين المعصية لهم، وتلبيس الحق عليهم بالباطل، حتى يصبح أكثرهم عصاة كافرين. فأعلمه الله بأنه لا سلطان له على عباده المخلصين المصطفين، من رفعوا شعار التوحيد، وأخلصوا الإيمان والعمل لله، فهم يستظلون فى ظلاله، بعصمهم ويكلؤهم برعايته فى الدنيا، ويدخلهم جنته فى

الآخرة. أما من يتبع الشيطان من عباده فقد أقسم الله ليعذبنه وإياهم فقال تعالى :

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ [ص]

وذلك عقابا لهم لأنهم أعموا بصائرهم عن الحقيقة بعد أن تبدت لهم واضحة جلية، فضلوا وأضلوا.

ويطوى هذا المشهد وإبليس يتحرق غيظا من آدم، متمنيا غوايته وسلبه النعم التى منحه الله إياها، ليعرض مشهد آخر هو مشهد آدم وقد خلق الله تعالى له زوجة تسكن إليها نفسه، وتطيب بها حياته،

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم].

ويأمرهما بالدخول إلي الجنة حيث النعيم الخالد، ويبيح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة ومن خيراتها ماشاءا ، إلا شجرة واحدة حرمها عليهما لغاية يعلمها الله عز وجل. وهذا أول تكليف إلهى لآدم وزوجه، فيه أمر بعدم الاقتراب من شجرة معينة، سبقه توضيح مدى حقد إبليس عليهما، وعداوته لهما.. وفيه إنذار لآدم بأن التجاوب مع إبليس لن ينجم عنه إلا الشقاء،

قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

وبطبيعة الحال، فقد اغتاظ إبليس وهو يرى آدم يرفل فى نعيم الجنة المقيم، وراحت نيران العهد الذى قطعه على نفسه بإغواء آدم وذريته تتأجج فى صدره، ما دامت الحياة قائمة.

ويأكل آدم وزوجه من الشجرة المحظورة مدفوعين بوسوسة الشيطان، ومنخدعين بمسوح التدين الذي ظهر به أمامهما -وهذه أخطر نقطة ضعف يمكن أن يُستغل بها الأناس الطيبون - حيث صار يقسم لهما الأيمان على صدقه، وإرادة الخير لهما، ﴿وقاسمهما إني لكما من الناصحين﴾ ، وانساب إليهما من نقطة ضعفهما، بعد أن عرف هذه النقطة، وهي الانقياد لغريزتي حب التملك والبقاء، وهما من أقوى النزعات التي تتملك الإنسان وأهمها، فقال له :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

فاستجاب آدم وزوجه لإغوائه وأكلا من الشجرة ناسيين، وما كادا يفعلان، حتى انكشف ما خفي عليهما من سوء عاقبة مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى، وأدركا فداحة خطئهما، عندها تدخلت الذات الإلهية معاتبة مؤنبة، بأن كنت قد نهيتكما عن الأكل من هذه الشجرة، وبينت لكما أن الشيطان عدو لكما، فلم المعصية ؟.

على أن سرعة الانزلاق نحو المعصية عند آدم، قابلتها سرعة الرجوع والإنابة إلى الله، وهذا هو الفرق بين آدم وإبليس، فالأول أحاط بخطيته ورجع عنها، والثاني أحاطت به خطيته بإصراره عليها. وهكذا ندم آدم على مخالفته، وأعلن وزوجه التوبة والإنابة كما علمهما سبحانه فقالا : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾

فقبل تعالى توبتهما واجتباهما. أما إبليس فقد أصر على ذنبه، وركبه

الغرور، فأمهله تعالى إلى يوم الدين، ومكنه من أن يرى بنى آدم من حيث لا يرونه، وأن يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، ولكنه حصنهم فى مواجهته بالهداية والإيمان، وأعد لإبليس فى الآخرة جحيما دائما وعذابا مقيما.

فى رحاب الآيات :

لا يمكن لمن يسعى إلى معرفة الله عز وجل وتبين صفاته العلية أن يبلغ غايته، ما لم يتفكر فى مخلوقات الله ابتداء بأقربها وانتهاء بأبعدها، لينتقل من دائرة التفكير بها إلى كمال اليقين بأنها أدلة ناطقة بعظمة الخالق، وروعة صنعته، وبديع إتقانه. وفى القرآن الكريم إشارات جمة إلي تلك الدلالات، وحض على التفكر والتأمل فيما أبدع الخالق، من سماء وأرض وجبال وبحر ... وملائكة وجن وإنس ... وغيرهم من العوالم والمخلوقات.

ويهدف القرآن الكريم فى كثير من آياته إلي لفت أنظار الناس لمعرفة الإله الحق، وإنارة قلوبهم بأدلة التوحيد، وذلك بدعوتهم وحثهم على التفكير فى ملكوت السموات والأرض ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وقدرته الباهرة، بعد أن تأمل فى خلقه المنظور، وتدبر معانى كتابه المسطور، لعرف خالقه وأحبه، وحار أن يعصيه. وفى ذلك قال أحد الحكماء : (لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه)، وقال آخر : (من نظر إلى الدنيا بغير عين العبرة والموعظة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة).

وللنظر فى هذا الكون وظيفة أخرى هى تتبع الإبداع الإلهى ودقته،

وتصور قدرة الله التى تحرك نواميسه وتحكم موازينه، لنلمس بذلك جمال الطبيعة، وسحرها وغموضها، إلى جانب عظمتها التى تنبىء عن عظمة مُبدعها، فيكون لنا فيها الراحة والسرور من جهة، واليقين والإيمان من جهة أخرى .

فالدعوة إلى النظر فى الكون دعوة للإنسان ليهتدى إلى مبدعه وخالقه، وليعرف حقائق الأشياء وخصائصها، كى يتسنى له الانتفاع بما أودع الله فيها من قوى.

وكان من نتاج الاستجابة لهذه الدعوة التى دعا إليها القرآن، أن أخذت العقول حريتها فى النظر والتأمل، ونهض كل إمام من أئمة العلم يبحث ويدرس ويجتهد فى سائر العلوم والفنون، دون أن يجد فى ظل الإسلام مايعوق نشاطه الفكرى واستقلاله العقلى.

وكانت حصيلة ذلك كله، ظهور الحضارة العربية الإسلامية الرائعة، التى كانت أساسا للنهضة الأوربية، وذلك بشهادة أحد المنصفين منهم عندما قال : (لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون).

ومما تجدر الإشارة إليه فى رحاب الآيات القرآنية السابقة، أنها قرنت التفكر فى خلق السموات والأرض بالتوجه القلبى لذكر الله وعبادته حق العبادة، ليعلم من هذا بأن الفكر والذكر جناحان لا استغناء عنهما ولا عن أحدهما لمن يريد أن يحلق للوصول إلى معرفة الله.

فالمؤمنون الذين يذكرون الله على اختلاف حالاتهم، قائمين وقاعدين ومضطجعين، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض تتفتح بصائرهم على

الحقائق الكبرى، ويغمرون بالحب الإلهى. فلحظات الذكر عندهم تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتفتح الإدراك واستعداده لتلقى بركات السماء، كما تمثل التأثر والاستجابة،

فهى لحظات العبادة، والوصال والتلقى، وبالتالى فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون التفكر ملهما للحقيقة الكامنة فيها، وهى أن هذا الكون لم يخلق عبثا ولا باطلاً، فلا يملك المرء بعد كل هذا إلا أن يتوجه إلى الله متضرعا معلنا قناعته بحكمته تعالى فى خلق المخلوقات قائلا: ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ .

وهذا من أدب المؤمن مع الله، فهو حين يهتدى إلى شىء من معانى إحسانه وكرمه فى بديع خلقه، ويستشعر عظمته، ينطلق من الإقرار إلى الدعاء طالبا من مولاه أن يجنبه عذاب النار وأن يوفقه إلى صالح الأعمال، لتكون وقاية تحول دون سخطه، ووسيلة تقرب إلى رضاه.

فمن أوائل الدلائل على عظمة الله عملية الخلق، وقد تحدى الله من يدعون الألوهية وينسوبنها لغيره، عن طريق مثل ضربة لهم بواحدة من أحقر مخلوقاته شأنا، ألا وهى الذبابة، ليقيم عليهم الحجة والبرهان، فيتوصلوا إلى الإقرار بعظمته والاعتراف بالعجز عن تقديره حق قدره.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾ [الحج].

ومضات :

– عندما ظهرت رسالة الإسلام كان الوثنيون يعبدون الأصنام من دون الله، فتحداهم تعالى فى هذه الآيات بدليل منطقى واقعى يدحض شركهم واعتقادهم بألوهية الأصنام، وهو ثبوت العجز فى حقها من ناحيتين : إنها عاجزة عن استرداد ما يُسلب منها ولو كان المسلوب ذرة، ولو كان السالب ذبابة، وهى أشد عجزاً عن القدرة على خلق شىء، ولو كان ذبابة أيضا.

– هذه الآيات قد تضمنت مثلا ضربه الله بمخلوق من أضعف مخلوقاته لإثبات قدرته تعالى على الخلق، وعجز المخلوقات عن هذه القدرة مهما أوتوا عن علوم وإمكانيات .

فى رحاب الآيات :

لو عمدنا إلى إحصاء ما خلقه الله تعالى من نجوم وكواكب ومجرات وعوالم لما استطعنا إليه سبيلا، ولو أردنا تركيز أبحاثنا عن هذا الكون لمعرفة ما يحتويه من الكائنات، لاستغرق ذلك آلاف السنين وملأ ملايين المجلدات دون أن نبلغ غايتنا.

ولذلك ينحى تعالى فى هذه الآية الكريمة كل عظيم من مخلوقاته جانباً، ويختار الذبابة الضئيلة الحجم والمكانة، ويطرح علينا سؤالا منطقيا مُعجزاً : هل يستطيع من ألهانهم وقدسناهم من دون الله – مجتمعين متكاتفين – أن يخلقوا واحدة مثلها؟

والجواب : إنهم أضعف وأقل شأنا من أن يخلقوا ذبابة واحدة وهم

الأحياء العقلاء! فكيف بالأصنام الحجرية الصماء التى كان الوثنيون يعبدونها؟.

لقد أراد الله بهذا المثل أن يثبت عجز تلك الأرباب المدعاة، والتى كان الناس يتخذونها آلهة من دون الله، فى صورة مثال معروض للأسماع والأبصار. فخلق الذباب من قبل أى من المخلوقات مستحيل، مثله مثل خلق الجمل والفيل، ولكن أسلوب التحدى القرآنى المعجز يختار الباب الصغير الضئيل الشأن ويبن العجز عن خلقه، ليلقى فى النفس مشاعر الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل، وبهذا يضعنا تعالى فى مواجهة عجزنا أمام قدرته العظيمة، دون أن يخل بالمعنى، وهذا من بديع إعجاز القرآن الكريم.

وتستمر العظمة الإلهية فى تحدى المشركين والكشف عن حال أصنامهم ومعبوداتهم التى لا حول لها ولا قوة، فيسألنا تعالى : لو أن ذبابة حطت على طعام أو متاع ثم طارت بعد أن علقت بأرجلها وذرات قليلة مما حطت عليه، فهل تستطيع هذه الأصنام مجتمعة أن تسترد منها ما علق بها؟.

ولا يخفى أننا نتحسس فى الآية الكريمة موقعا آخر من البلاغة الرفيعة تتذوقها فى الأسلوب القرآنى، فلو أنه قال : وإن تسلبهم السباع شيئا لا يستنقذوه منها، لأوحى ذلك بأن المانع هو أن قوة تلك الأصنام لا تضاهى قوة السباع.، ولكنه ذكر الذباب كى لا يخطر فى البال أى لون من ألوان القدرة التى يمكن أن تُنسب إلى تلك الأحجار الجامدة.،

فما أضعف هذا العابد الذي يطلب الخير من غير الله، وما أضعف هذا المعبود العاجز عن إنجاز ما يُطلب منه. وما أشقى هؤلاء الذين سلكوا طريق الوثنية والشرك بالله لأنهم لا يقدروا الله حق قدره، فأشركوا معه فى العبادة ما لايستطيع خلق ذبابة حقيرة، فى حين أنهم يرون آثار قدرته، وبديع خلقه، وعظيم سلطانه.

والقرآن الكريم يوجه أنظار الناس إلى التعامل فى عجائب صنع الله فى الكون، وهى مبثوثة فى كل الوجود، فكيف لا يؤمنون ، وكل ما حولهم يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم ؟.

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى].

و ضات :

– من الدلال على عظمة الله وقدرته عز وجل خلق السموات والأرض، وما أوجد فيهما من مخلوقات تسعى، لا نعرف إلا بعضا منها ولا ندرى عما تفرق منها فى ملكوت الله الواسع إلا الشىء القليل.

– أشارت الدراسات والأبحاث العلمية إلى وجود كائنات تحيا وتعيش فى الكواكب الأخرى . وقد قال بعض العلماء فى هذا الشأن : [إن من يعتقد بأنه لا توجد حياة ومخلوقات على غير كوكبنا الأرضي كمن يعتقد بأن قطته تلد دون سائر قطط العالم]. والحقيقة أن القرآن الكريم له السبق فى هذا المجال وذلك بصريح قوله تعالى : ﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ أى فى الأرض وفى السماء.

- كل هذه المخلوقات تحت أنظار الله وفى قبضته، فهو القادر على جمعها متى يشاء وأين يشاء وكيف يشاء قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾ [الزمر].

فى رحاب الآيات :

آيات الإعجاز فى خلق الله لاحصر لها ولا عد، وهى مبثوثة فى كل ناحية من نواحى هذا الكون الفسيح، فالإنسان ذاته آية، والسماء وما أظلت آية، والأرض وما أقلت آية ... وغيرها كثير، وما على الإنسان إلا أن يفتح عينيه متأملا ليرى، ويصغى بأذنيه متعقلا ليسمع، فيتفتح قلبه، وتتنور بصيرته، ويحدث التماس بينه وبين الإيمان بخالق هذه الآيات العظام.

إن هذه الآية التى ذكرت خلق السموات والأرض ماثلة للعيان، قائمة تشهد بانها على ما جاء به الوحى، وهى لا تحتمل جدلا أو ريبة، لأنها قاطعة فى دلالتها، تخاطب الفطرة التى تشهد بأن الذى أنشأ هذه الآيات ودبرها لا يمكن أن يكون الإنسان ولا أى مخلوق غيره، من خلق الله أجمعين، لأن ضخامتها الهائلة، وتناسقها الدقيق، ونظامها المضطرد، ووحدة نواميسها الثابتة، كل ذلك لا يمكن تفسيره عقلا إلا على أساس الإيمان بوجود إله أنشأها ويدبرها. والفطرة السليمة تتلقي هذا المنطق عن الكون تلقيا مباشراً، وتدركه وتطمئن إليه قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة.

وتنطوى آية خلق السموات والأرض على آية أخرى فى ثناياها يُجملها عز وجل بقوله : ﴿ .. وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا

يشاء قدير﴾ فهذه الأحياء المبثوثة فى كل مكان، فوق سطح الأرض، وفى أعماق البحر، وفى أجواء الفضاء وفى الكواكب الأخرى، والتى لا يعلم الإنسان عنها إلا النزر اليسير، يجمعها الله حين يشاء للمحاسبة، ومعها خلائق أخرى أربى عدداً وأخفى مكاناً، وليس بين بثها فى السموات والأرض وبين جمعها إلا كلمة (كن) يأمر بها الله عز وجل فإذا هى منصاعة لأمر ربها، فتبارك الله العظيم القدير.

ومن ذلك كله ندرك أن الله تعالى يبين الدلائل والبراهين لعباده ليؤمنوا به ويقبلوا عليه، فيفوزوا برضاه، ويكونوا من سعداء الدارين.

وجملة القول إن الآيات الكونية تحث كل من يحجب عقله عن البحث في علوم الله المودعة فى هذا الكون العظيم، على شق الحجاب والانطلاق إلى العلم والمعرفة. فمن يتفهم ما جاء فى القرآن الكريم تتضح له المعانى العلمية التى تضمنها، وكلما ازداد الركب الحضارى تقدما، والعلوم ازدهاراً، كلما تبين تطابق ذلك التقدم والإزدهار مع ما لفت القرآن الكريم الأنظار إليه.

خلق الإنسان

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون].

ومضات :

– نتبين من الآيات الكريمة أن الله تعالى خلق آدم من مواد متوافرة فى التراب، ثم توالت عملية الخلق لهذا النموذج الإنسانى بعد أبى البشرية آدم – عليه السلام – بواسطة الحيوان المنوى، الذى يحمل فى مركباته كلا من الصفات والمورثات الإنسانية، التى تنتقل من الآباء إلى الأبناء – وعلى مر الأجيال – لحفظ النوع الإنسانى وتكاثره.

– تمر النطفة فى رحم الأم بمراحل تكوينية بالغة فى الإعجاز إلى أن

يأخذ الجنين صورته الإنسانية الكاملة، وقد صور القرآن الكريم تلك المراحل بداقة، استطاعت اكتشافات العلم المعاصر أن تتوصل إليها مؤخرا، متخلفة عما أثبته القرآن الكريم قرونا متطاولة.

– كما يمر الجنين فى رحم أمه بمراحل مختلفة إلى أن يصبح وليداً، فإنه يعيش حياته الثانية كذلك، ويمر فيها بأطوار تتراوح ما بين طفولة بريئة .. وشباب متوقد.. وشيخوخة متردية عند بعضهم .. وهكذا إلى أن تنتهى دورة الحياة هذه.

– يُبعث الإنسان يوم القيامة حيا بعد موته، كما تحيا البذور بالماء بعد زرعها، وهذا من إعجاز الله تعالى وقدرته على الإحياء بعد الإماتة، وهو الخالق القدير.

فى رحاب الآيات :

الإنسان ابن هذه الأرض، من ترابها نشأ، وفوقه عاش ومنه تغذى، وكل عنصر فى جسمه له نظيره فى عناصر أمه (الأرض) .

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح]

اللهم إلا لك السر اللطيف الذي أودعه الله ونفهخه فيه وهو الروح،

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى ما تحتويه الأرض من عناصر، فهو يتكون من الكربون، والأوكسجين، والهيدروجين،

والفوسفور، والكبريت، والأزوت، والكالسيوم والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك ، والسلكون، والألمنيوم،

وكل هذه العناصر هى العناصر نفسها المكونة للتراب أيضا، وإن اختلفت نسبها بين الإنسان والتراب، ومن إنسان لآخر. كذلك فإن نسبة الماء من جسم الإنسان، تعادل نسبة البحار إلى اليابسة فى الكرة الأرضية، وهذا ما يؤكد خلق آدم من تراب الأرض. وهكذا فإن التراب هو الطور الأول والإنسان هو الطور الأخير، وهذه الحقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب مصداقا لها من النظريات العلمية التى تبحث فى نشأة الإنسان، أو نشأة الأحياء.

والقرآن يقرر هذه الحقيقة ليجعلها محلا للتدبر فى صنع الله والتأمل فى النقلة البعيدة بين التراب والإنسان المنحدر فى نشأته من ذلك التراب، وبعض النظريات العلمية تحاول إثبات سلم معين للنشوء والإرتقاء لوصل حلقات السلسلة بين الحيوان والإنسان، وفى هذا حط من قدر الإنسان، ولكن القرآن يكرم الإنسان ويقرر أن فيه نفخة من روح الله هى التى جعلت من سلالة الطين إنساناً، ومنحته خصائص ميزته عن غيره من المخلوقات.

لقد جرت سنة الله أن يتم تناسل الإنسان وتكاثر أفراده، عن طريق دفقة مائية تخرج من صلب الرجل وتشق طريقها لتثبت فى الرحم، الغائرة بين عظام الحوض، التى تحميها من التأثر باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب ظهر الأم وبطنها من كدمات واهتزازات.

أما المسافة التى تعبر عن درجة التطور والارتقاء التى تفصل بين عناصر التراب الأولية وبين النطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية، فهى مسافة هائلة تنطوى على السر الأعظم، سر الحياة الذى لم يعرف البشر عنه حتى الآن شيئا يذكر، والذى لا سبيل لهم إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله، دون الوصول إلى معرفة سره وكنهه.

والتعبير القرآنى يجعل النطفة طورا من أطوار النشأة الإنسانية، وهى حقيقة رائعة تدعو إلى التأمل، فالإنسان يختصر ويختزل بكل عناصره وخصائصه فى الحيوان المنوى، ذلك الكائن المتناهى فى الصغر الذى لا يرى بالعين المجردة، ويشكل واحداً من مئات ملايين الحيوانات المنوية الموجودة فى النطفة.

هذا الكائن الذى يلتقى بالبويضة فيتحول معها إلى نقطة صغيرة عالقة بجدار الرحم تتغذى من دم الأم، وتختزن جميع خصائص الإنسان المقبل : سواء فى ذلك صفاته الجسدية وسماته الخلقية، من طول وقصر، وضخامة، وضآلة ، وقبح ووسامة، وآفة وصحة، أو صفاته النفسية والخلقية، من ميول ونزعات، وطباع واتجاهات، ومواهب واستعدادات.

فما أعظم هذا الإعجاز ! وما أعظم أن يكون ذلك كله كامنا فى تلك النقطة الضئيلة تلك النطفة الصغيرة فى الحجم، الهائلة فى القدرة، عليها يرتكز تكوين هذا الإنسان المعقد تركيباً... والمعجز بناء وتكويناً ... الواحد أصلا ونشأة ... والمختلف ألسنة وألواناً، وخصائص وطباعاً، فلا يمكن أن يتطابق شخصان من السلالة البشرية على وجه هذه الأرض تطابقا تاما وعلى امتداد العصور والأجيال.

وهكذا تستمر الآية الكريمة فى التعريف بحلقات السلسلة التكوينية لخلق الإنسان. فمن التراب إلى النطفة ومن النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة، حيث تكبر تلك النطفة العالقة، وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط على هيئة مضغة لا تحمل سمة ولا شكلا،

ثم تتابع المضغة طريقها فتمضى فى خط ثابت من النمو لا ينحرف ولا تتوقف حركته المنتظمة حتى تجىء مرحلة العظام، فمرحلة كسوة العظام باللحم.

وهنا يقف الإنسان مشدوها أمام ما كشفه القرآن عن مراحل تكوين الجنين، والذى لم يُعرف على وجه الدقة إلا مؤخرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحى: فخلايا العظام فى غير خلايا اللحم،

وقد ثبت أن خلايا العظام تتكون أولا فى الجنين، ولا تُشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام الهيكل العظمى للجنين.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن بعض هذه المراحل التى يمر بها كل جنين، فقد جاء فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نُطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ..»، وهذه الكتابة ليست كتابة إجبار وقهر، ولكنها كتابة علم بما سيكون عليه هذا المخلوق فى المستقبل، فالإنسان مخير فى أقواله وأفعاله ومعتقداته وليس مسيرا ولا مجبراً. فهذا الإنسان ذو الخصائص المتميزة،

والذى يشبه جنينه جنين الحيوان فى أطواره الجسدية، وذلك فإنه ينشأ خلقا آخر، ويتحول إلى مخلوق مستعد للارتقاء (المعرفى والروحى)، بينما يبقى جنين الحيوان فى المراتب الدنيا، مجردا من خصائص الارتقاء، والكمال التى يمتاز بها الإنسان.

والآيات التى تحدثت عن الخلق توحى بعظمة الخالق وقدرته وكأنه تعالى يقول فيها: لقد خلقناكم على هذا النمط البديع، لنبين لكم جميل نظامنا، وعظيم حكمتنا، ونبين لكم بهذا التدرج قدرتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً - ولا تناسب بين التراب والماء - قادر على أن يجعل النطفة علقة - وبينهما تباين ظاهر- ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً، وقادر أيضاً على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل فى القدرة، وأهون فى القياس.

وهو الذى يثبت الحمل فى أرحام الأمهات، ويقر ما يشاء من هذا الحمل حتى يتكامل خلقه إلى زمن معين هو وقت الوضع، ثم يخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً فى بدنه وسمعه وبصره، وحواسه، ثم يكتسب القوة بإذن الله شيئاً فشيئاً حتى يبلغ كمال قوته وعقله،

فكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات فى المميزات أبعد من مسافات الزمان، تتم بيد القدرة المبدعة التى أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان، وكل الاستعدادات الكامنة التى تتبدى فيه وتتكشف فى أوانها، كما أودعت النطفة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل، وهى من ماء مهين.

ثم يخبرنا تعالى عن عظيم حكمته، فقد جعل أعمار الناس متباينة كتبادين صفاتهم وسماتهم، فمن الناس من يتوفى شاباً، ومنهم من يطول به العمر، فيصبح صفحة مفتوحة للتدبر، فبعد العلم والرشد وبعد الوعى والاكتمال، إذا به يرتد عند شيخوخته طفلاً فى عواطفه وانفعالاته، وكذلك فى ذاكرته التى قد تعينه حيناً وتخونه أحياناً، وقد يرهق ذهنه ويثقل فينفلت من عقال، بعد أن كان يختال بها العلم فى شبابه ويتطاول، ويظن أن الشباب والقوة دائمان.

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

لذلك كان النبى ﷺ يدعو فيقول : «اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر». (رواه النسائى عن سعد - رضى الله عنه -).

خلق الكون

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [هود].

وقال أيضا : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء].

ومضات :

- من الدلائل الكونية على عظمة الله تعالى وكمال قدرته خلق السموات والأرض.

- العرش والماء سابقان فى الوجود للسموات والأرض.

- محصلة حقائق العلوم الكونية لا تتناقض مع المعتقدات التى جاء بها الدين الإسلامى بل تتطابق.

- كانت السموات والأرض كتلة واحدة، ثم شاء الله تعالى انفصالها، لتصبح أجراماً منفصلة عن بعضها بعضاً، كل جرم منها قائم بذاته، متميز بخصائصه، ومنفرد بدوره فى تكامل الكون وإعماره وإمداد الحياة بأسباب بقائها إلى ما شاء الله.

- الماء هو الأصل الذى اختاره تعالى للحياة، وجعله عنصراً فاعلاً فيها.

فى رحاب الآيات :

لا يزال العلماء حتى يومنا هذا يبذلون الجهود المتواصلة لمعرفة أصل الكون، ويبحثون ويستقصون محاولين الرد على أسئلة مازالت تطرح نفسها حول سر تكوينه وبداية الخليقة.

وهذه الآيات الكريمة تطوف بالعقل البشرى فى رحاب الكون الفسيح، الذى تديره يد القدرة الإلهية بحكمة بالغة، وتوقظ الغافلين عنها وعما فيها من عجائب يحار بها لب كل ذى قلب سليم، وحس يقظ، وبصيرة نافذة منورة. فتبدأ بالإشارة إلى أن التركيب الأساسى للفضاء وما فيه من مجموعات النجوم والمجرات التى لا تحصى واحد، بما فى ذلك المجموعة الشمسية المؤلفة منر الشمس وتوابعها.

فجميعها كانت كتلة واحدة ملتهبة -رقتاً- ثم فتقت، فانفصلت وابتعدت عن بعضها مشكلة بذلك النجوم والكواكب. وما أرضنا إلا واحة منها قد غمرتها المياه فانطفأ سطحها وبرد، ثم اهتزت فتصدعت وانحسر الماء عن بعضها فأصبحت صالحة للحياة.

ولا بأس من الإشارة فى هذا السياق إلى أن النظريات العلمية الصحيحة القائمة اليوم لا تتعارض مع المفهوم الإجمالى لما جاء فى القرآن الكريم، ومن ذلك بيانه بأن الله تعالى قد جعل الماء أصلا لخلق جميع الأحياء. وبناءً على هذه الحقيقة فإن العلماء يستقون إلى أبحاثهم إمكانية وجود الماء على الكواكب الأخرى ليقينهم أنه حيثما يكون الماء تكون الحياة. وهذا العنصر الأساسى يحتل القسم الأكبر من مساحة كوكبنا الأرضى، فإن كانت اليابسة تشكل حوالى الخمس فهو يشكل الباقى، ومع ذلك فهو لا

يؤلف فى الطبيعة الجمادية إلا جزءاً يسيراً منها، بينما يحتل الجزء الأكبر فى تركيب الكائنات الحية، لأن جميع التفاعلات الكيماوية التى ترافق الأحداث الحيوية لا تتم إلا فى وسطه. ويقسم الماء الموجود في الكائن الحى إلى قطاعين كبيرين : الأول هو الماء داخل الخلية ويضم حوالى ٥٠٪ من وزن الجسم كله، والثانى هو الماء خارج الخلية الذى يشمل ٢٠٪ من وزن الجسم كله، موزعة ٥٪ فى الدم و١٥٪ فى الخلال التى بين النسج الحية، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى ﴾.

وقد أجاب القرآن الكريم بإشارات عامة عن بدايات الخلق والتكوين، فأخبرنا بأن الله عز وجل قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام حسبما اقتضت حكمته، ولكن تلك الأيام لا تقاس بوحدتنا الزمنية المتعارف عليها، لأنا غير أيام الأرض، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾[الحج]

وهذا ليس بمستبعد إذا علمنا أن علماء الفلك قد أثبتوا أن أيام الكواكب التابعة لنظام شمسنا تختلف عن أيام الأرض فى طولها بحسب أجرامها وأبعادها وسرعة دورانها.

وقد بين الرسول ﷺ التسلسل الزمنى فى نشأة الكون فيما أخرجه أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن مردويه والبيهقى أن أهل اليمن قالوا : «يارسول الله ! أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب فى اللوح المحفوظ كل شيء وخلق السموات والأرض».

خلق السموات

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات].

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء].

ومضات :

– تتمد يد القدرة الإلهية إلى أبعد بكثير من أن تحصيها طاقة البشر وإمكاناتهم، وكلما اكتشف العلماء جديداً فى عالم السماء، وجدوا بأن هناك المزيد والمزيد مما لم يدركوا كنهه بعد.

– حفظ سبحانه وتعالى الأرض من المؤثرات الكونية بما فيها من إشعاعات وشهب ونيازك بغطاء غير منظور، حفظا لسلامتها وسلامة الجنس البشرى وغيره عليها.

فى رحاب الآيات :

تشير كلمة موسعون فى الآية الكريمة إلي استمرارية عملية البناء إلى ما لا نهاية. أما الأبدى : فتشير إلى القوة، والقوة أوضح ما يُنبىء عنه بناء السماء المتماسك المتناسق، بأى معنى من معانى كلمة السماء ، سواء أكانت تعنى مدارات النجوم والكواكب، أم مجموعة من المجموعات النجمية التى يطلق عليها اسم المجرة وتحوى مئات الملايين من النجوم، وسواء أشار مدلولها إلى طبقة من طبقات الفضاء الذى تتناثر فيه النجوم والكواكب، أم غير ذلك من مدلولات كلمة السماء . أما السعة فهى ظاهرة،

فسائر النجوم الهائلة حجما، اللامتناهية (وفق علومنا) عدداً، لا تعدو كونها ذرات متناثرة فى هذا الفضاء الرحيب .

وهذا ما توصل إليه العلماء مؤخرا، فكل الأفلاك تسبح فى كون فسيح ذى أطراف مترامية، وأبعاد لامتناهية، تحكم مسيرتها جميعا قوة الجاذبية التى تدرك وجودها ولكن لا نراها، وكان الله سبحان وتعالى عناها بقوله :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد].

ونلمح فى قوله تعالى ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظاً ﴾ دعوة إلى تتبع علوم الفلك بشكل عام، وربما إلى دراسة طبقات الغلاف الجوى، ومنها طبقة الأوزون التى تشكل سقفا لحماية الأرض خاصة.

وتشير الآية إلى الغلاف الجوى للأرض للأهمية البالغة التى أثبتها له العلم، فالإشعاعات الكهرومغناطيسية التى تصدرها الشمس، وأهمها الأشعة فوق البنفسجية الفتاكة، تفقد طاقتها عند اختراقها له، فيعكسها ولا يبقى منها إلا جزءاً يسيراً يصل إلى الأرض لننتفع به، كما يمنع وصول أصوات الانفجارات الفضائية لبعض الكواكب، التى يمكنها أن تودى بحياة الإنسان لعظمها، كما يشكل حزاماً حول الأرض كالسقف ليحفظها من الشهب والنيازك، فتحترق به وتتفتت قبل أن تصل إليها. ومن أجل هذه المهام الجليلة حفظ تعالى هذا السقف وجعله -جلت قدرته- حافظاً ومحفوضاً.

وإلا ما تفكرنا وتأملنا بها كله، وبمن ضبط وأحكم وقدر هذا السقف المحفوظ حول الأرض، نجد أن القرآن الكريم قد دعا إلى البحث العلمى، فى شتى مجالاته، بما فى ذلك العلوم الفلكية،.

والأمر المدهش والثابت اليوم هو أنه كلما تقدمت العلوم الفلكية وابتكر العلماء مراصد ذات قدرات خارقة لكشف عالم المجرات والأكوان الهائلة، كلما أصيبوا بالذهول أمام اكتشافهم لعوالم جديدة لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً.

اقرأ وتدبر ليطمئن قلبك(١)

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر].

وفى رحاب وظلال هذا المعنى نقول :

١- أن السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة كاملة، بسرعته البالغة (٣٠٠) ألف كيلو متر فى الثانية.

قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات].

٢- يقدر علماء الفلك والطبيعة عمر الأرض بنحو ثلاثة آلاف مليون سنة، ولم تعمر بالحياة إلا فى أواخر عهدها، وأثر الإنسان على الأرض لا يزيد على (١٠٠) ألف سنة أما حضاراته كما نعرف لا يزيد عمرها على خمسة آلاف سنة، فهو زائر أو ضيف حديث العهد بالأرض، رغم ما حققه بسلطان العلم من كشوف، وما أحرز من تقدم.

قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

٣- من فائدة تسخير الله للغلاف الهوائى أنه ينقل إلينا الصوت والضوء، فلو ارتفعنا فى الفضاء الخارجى بعيداً عن الغلاف الهوائى للأرض، فلا تدرك حواسنا ضوءا أو صوتا الا عن طريق الموجات الكهرومغناطيسية، كما يحدث عن طريق مركبات الفضاء.

---

(١) محمد عفيفى – القرآن وعلوم الغلاف الجوى – مجلة الدعوة المركز الإسلامى للدراسات والبحوث .

٤- أن إحدى طبقات الغلاف الجوى ويطلق عليها (الأ بوتوسفير) منها طبقة تعرف باسم (فييد) هى التى تعكس موجات اللاسلكى بعد اطلاقها من محطات الإاعة، وتردها إلى مراكز الاستقبال وهذه الطبقة على ارتفاع حوالى (١٠٠) كيلومتر.

٥- إن إحدى طبقات الغلاف الهوائى ويطلق عليها اسم (التروبوسفير) على ارتفاع (من ٨ إلى ١٨) كيلومترا، وفيها تحدث التقلبات الجوية فتثار السحب وينزل المطر وتحدث الأعاصير.

٦- إن فى الهواء غاز يسمى (الأوزون) يمتص معظم الأشعة فوق البنفسجية القاتلة وهى الآتية من الفضاء الخارجى فلا يصل إلينا منها إلا القدر المناسب والنافع لحياة الكائنات.

٧- إن في الهواء غاز يسمى (الأرجون) ويوجد بنسبة (٠٦ر٠) وهو المسخر ليعطينا الضياء والنور.

٨- فى أعلى الغلاف الهوائى منطقة تحول دون توهج الشهب وتعمل على تفتيتها.

٩- إن عمودا من الهواء مساحته واحد سنتيمتر مربع وارتفاعه يمتد إلى نهاية الغلاف الجوى للأرض يضغط على الأرض بمعدل (٧٦) سنتيمتر مكعب زئبق أو نحو مايزيد وزنه على كيلوجرام.

١٠- لو زادت نسبة الأكسوجين عن (٩٥ر٢٠٪) وهى النسبة الموجودة فى الهواء الجوى ووصلت إلى (٥٠٪) مثلا فإن جميع المواد القابلة للاحتراق تكون عرضة للاشتعال من أول شرارة.

ولو قلت نسبته حتى هبطت إلى (١٠٪) مثلا فإن الحياة تنتهى على الفور وخاصة بالنسبة للإنسان والحيوان .

قال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق].

١١- نسبة النيتروجين فى الهواء (٧٨٫٠٧٪) وهو يعمل مخفف للأكسوجين والغازات الأخرى، ويخفضها إلى النسبة التى تلائم الحياة على سطح الأرض، وهو جزء من الغلاف الواقى للأرض من أخطار الفضاء الخارجى.

ويعتبر مخزن احتياطى لتعويض ما ينقص من نسب الغازات الأخرى فى الهواء، وهو غاز جامد عنيد، ويمكن تحويله بصعوبة إلى النيتروجين المركب الذى يتكون منه العنصر النيتروجينى فى أغيتنا، وبدونه يموت الإنسان والحيوان جوعا.

قال تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾[الفرقان].

١٢- الإنسان والحيوان يحتاجان إلى الأكسوجين للتنفس ويطردان ثانى أكسيد الكربون والنبات يحتاج ثانى أكسيد الكربون ليساعد فى بناء خلاياه، ويطرد الأكسوجين !! فمن الذى جعل هه المقايضة قائمة بين الكائنات الحية ؟ ولوا ذلك لانقلب التوازن ومات الإنسان والحيوان والنبات!! من الذى سخر ذلك؟ أنه الله !!.

١٣- ثانى أكسيد الكربون يوجد فى الجو بنسبة ٣/١٠٠ من ١٪ أى

(٠٠٠٣ر) وهو غاز ثقيل يلامس سطح الأرض، ولا يتم فصله إلى أكسوجين وكربون إلا بصعوبة كبيرة، وكل إنسان وحيوان يتنفس الهواء فيمتص الدم الأكسوجين ويطرد ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء.

ويحتاج النبات إلي المقادير القليلة من ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الهواء، وأوراق النبات لها القدرة على تجزئة ثانى أكسيد الكربون في ضوء الشمس إلى كربون وأكسوجين فتخرج أوراق النبات الأكسوجين ليتنفسه الإنسان والحيوان، ولولا ذلك لانتهت حياتهما.

ويحتفظ النبات بالكربون فيتحد مع هيدروجين الماء الذى يستمده من جذوره وبكيمياء ربانية يصنع الله من هذه العناصر سكرا وسيليولوز ومواد كيميائية أخرى عديدة تختزن في الفواكه والأزهار ويغذى النبات منها نفسه، وينتج فائضا يكفى لتغية كل إنسان وحيوان على ظهر الأرض ..

قال تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].

ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الإنسان والحيوان كانا يستهلكان كل الأكسوجين وكان النبات يستهلك كل ثانى أكسيد الكربون فتكون النتيجة الحتمية عنئذ موت النبات والإنسان والحيوان جميعا.

١٤- للغازات الموجودة فى الهواء وظائف أخرى منها ما يتصل بوقاية الحياة من التلف.

١٥- لولا ضغط الهواء لخرج الماء من أغشيتنا وفسدت الدماء، وهو

مسخر أيضا لتوزيع الرياح بأنواعها المختلفة، وتوزيع الحرارة من مناطق الضغط المرتفع إلى الضغط المنخفض.

١٦- يحتاج الإنسان وجميع الكائنات الحية إلى نسب ثابتة من مكونات الهواء مما يجعل هذه النسب تنقص تدريجيا عما كانت عليه منذ بدء الحياة إلى الآن، ولكن الذى يدعو إلى الإيمان بالله هو بقاء هذه النسب طوال هذه الدهور بلا تغيير.

١٧- على الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طوال هذه الدهور ومعظمها سام، فإن الهواء باق دون تلوث، وهذا بسبب ما أوجد الله تعالى فى الهواء من غاز مطهر هو (الأوزون).

١٨- الهواء موجود منذ بدأت الحياة على الأرض بمكوناته وبنسب متوازنة تناسب الحياة، وبقاء هذه الموازنة ثابتة تساعد عليه تلك الكتلة الفسيحة من الماء (٨/١٠) أى المحيطات التى تمد الأحياء بالغذاء والمطر والمناخ المعتدل للنباتات والإنسان والحيوان.

قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء].

١٩- توصل العلماء إلى اكتشاف أن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الذى تحتاج إليه الزروع، والتى تقتل الجراثيم، وتنتج الفيتامينات، ودون أن تضر بالكائنات الحية الأخرى.

وهو لايزيد ولا ينقص محتفظا بنسبه المتوازنة الصالحة لحياة الكائنات وذلك بتقدير الله تعالى وخلقه لضغط طبقات الهواء بعضها على

بعض، وكذلك جذب الأرض للهواء فلا ينفلت من حولها منتشرا فى الفضاء الخارجى بعيدا عن الأرض.

إن هذا التدبير الدقيق المتناهى فى الدقة في كل شىء ليس من عمل الصدفة، ولكنه من تدبير الله تعالى وتقدير العزيز العليم الذى قال :

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه].

٢٠- إن حجم الهواء لا يزيد على واحد من مليون من حجم الأرض فإن كان أقل أو أكثر ففي الحالتين كان الإنسان لايستطيع أن يعيش، لقلة الضغط أو زيادته، أو لقلة الأكسوجين أو زيادته، وكذلك بقية مكونات الهواء الأخرى.

٢١- لو كان سمك الغلاف الهوائى أكثر مما هو عليه لاحترقت الأرض وكل ما عليها بسبب زيادة الأكسوجين والضغط الجوى .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد].

٢٢- ولو كان سمك الغلاف الهوائى أقل مما هو عليه، فإن الشهب التى تمرق كل يوم بالملايين فى الفضاء الخارجى كانت كفيلة بأن تهلك وتحرق الأرض وما عليها.

كذلك الشمس المحرقة، والأشعة القاتلة للخلايا الحية: مثل الأشعة الكونية والأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس، وكذلك الأتربة الكونية، كل هذه موجودة فى الفضاء الخارجى حول الأرض وقد توصل العلم الحديث إلى أن يكتشف ضررها البالغ ومع ذلك فهى لا تضر بالحياة

لتقدير الله تعالى الذى قال : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء].

٢٣- تكوين السحب الركامية (الممطرة) يبد من ارتفاع (٨) كيلومتر ثم تنمو رأسيا حتى يصل ارتفاعها إلى حوالى (١٨) كيلومترا.

وقد بين الله ذلك بأدق وصف وتفصيل وبين خطوات تكوين السحب الممطرة، وكيف أنها تنمو رأسيا فتصير كالجبال العالية، ويجعل الله تعالى فيها خاصية التبريد الذاتى، أى تبريد الهواء بالتمدد والانتشار، وربط تعالى بين البرد والبرق (انفصال الشحنات الكهربية داخل السحب) واكتشف العلماء أن الشحنات السالبة تتكون بجوار القاعدة، والشحنات الموجبة على مستويات أعلى، وفى هذه الحالة أما أن يكون التفريغ (البرق) بين أجزاء السحابة الواحدة، وأما بين سحابتين متجاورتين، أو بين السحابة والأرض، ويعرف التفريغ فى هذه الحالة باسم الصاعقة.

وتشير الآية إلى أخطار البرق، ومنه ذهاب البصر، حيث تكون ومضات البرق بمعدل (٤٠) ومضة فى الدقيقة وهو ما يعانيه الطيارون فعلا. أنه الإعجاز القرآنى !!

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور].

٢٤- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام لامتصت ثانى أكسيد الكربون ولما أمكن وجود النبات.

٢٥- ولو كانت قشرة الأرض أقل مما هى عليه الآن لامتصت قشرة الأرض وماعليها من المحيطات الأكسوجين ولما أمكن وجود الإنسان والحيوان.

٢٦- لو كانت الأرض تبعد عن الشمس ضعف بعدها الحالى، لنقصت كمية الحرارة التى تصلنا إلى ربع كميتها الحالية ولقلت سرعة دوران الأرض حول الشمس، ولتضاعف تبعا لذلك طول فصل الشتاء، وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

٢٧- لو اقتربت الأرض من الشمس إلى نصف المسافة التى تفصلهما الآن لبلغت الحرارة التى تتلقاها الأرض من الشمس إلى أربعة أمثال ما تتلقاه منها الآن، ولتضاعفت سرعة الأرض حول الشمس، ولانعدمت الفصول، ولما أمكن بذلك وجود أية حياة على سطح الأرض.

٢٨- لو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعرت بعد ذلك الحياة على الأرض، حيث أن الملح هو الذى يمنع حصول التعفن والفساد.

٢٩- ولولا أن غاز الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح وبالتالى ماكانت حياة.

٣٠- المياه المتجمدة بكميات هائلة عند القطبين لو قدر لها أن توب، وهذا لا يحتاج إلا لبضع درجات من الحرارة، لارتفع منسوب المياه فى البحار والمحيطات، ولأغرقت أغلب مساحات القارات وما عليها من حياة.

٣١- لو كانت الأرض كعطارد أو القمر لا يدير إلا وجها واحدا منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة خلال الدورة الكاملة

للشمس لكان قسم من الأرض ليلا دائما والآخر نهارا دائما ولما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم ولا كانت حياة.

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص].

٣٢- لو لم تكن قوانين الجاذبية، فكيف تلتقى الذرات وجزئيات الذرات وتتماسك؟ وكيف تكون الشمس شمسا والأرض أرضا والسموات!!؟

٣٣- لولا تقدير الله تعالى لقوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة.

٣٤- لولا تكوين الله تعالى للجبال لتناثرت الأرض ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة !!.

٣٥- ولولا أن قدر الله تعالى فى الأرض أرزاقها لما بقي الحياة !!

٣٦- لو أن حجم الكرة الأرضية أكبر مما هو أو أصغر، أو أن سرعتها كانت مختلفة عما هى عليه لكان لذلك أثر هائل على كل أنواع الحياة، بما فيها حياة الإنسان.

٣٧- تدور الأرض حول محورها مرة كل أربع وعشرين ساعة أو بمعدل نحو ألف ميل فى الساعة، ولو فرضنا أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط فى الساعة عندئذ سيكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، وفى هذه الحالة تحرق شمس الصيف كل النباتات بينما فى الليل يتجمد كل نبات فى الأرض .. سبحان الخالق المنعم.

قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) ﴾ [الأعلى].

٣٨- أن الكرة الأرضية مائلة بزاوية (٢/١ ٢٣°) درجة ولو لم تكن مائلة هكذا لكان القطبان فى حالة غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوبا ومكونا فى طريقة قارات من الجليد، ولضغط ثقل الكتلة الهائلة من الجليد على القطبين فيؤدى ذلك إلى فرطحة خط الاستواء جدا.

٣٩- من نتائج تقدير الله تعالى لتفرطح الأرض ودورانها أن :

١- الأشياء تزن عند القطبين أكثر مما تزن عند خط الاستواء.

٢- لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها ولما تعاقب الليل والنهار ولانعدمت الحياة على الأرض.

٣- دوران الأرض يوجه الرياح والضغط والسحاب.

٤- لو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت هى الأخرى فى الفضاء.

٥- لو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر وبرد.

قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك].

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ

عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑪ ﴾ [لقمان].

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑱ ﴾ [النحل].

تذكير

١- القرآن هدى ونور ورحمة للناس :

قال تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر].

٢- القرآن يدعو إلى تدبر آياته وإلى التأمل وإلى النظر فى سائر المخلوقات، وينهى عن الأعراض عنها.

قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ويقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الشعراء].

ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) ﴾ [الزمر].

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ [الغاشية].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة].

٣- القرآن يدعو إلى عبادة الخالق دون شريك، وإلي التصديق بالنبوة والبعث بعد الموت. ومما لاشك فيه أنه جاء فى عدد كبير من آيات الذكر الحكيم الحديث عن خلق العالم، وتعرض على الأفهام والعقول نظام الكون وما فيه من دلائل العلم الواسع والقدرة العظيمة، والحكمة البالغة والرحمة الواسعة، ويطلب الله تعالى من عباده التدبر والتأمل فيما يحكيه، ويحث على النظر فيه والانتفاع به.

ونلاحظ :

أن للآيات معانى ظاهرة عامة وأخرى دقيقة خاصة، وأن الشخص العادى يستطيع أن يستجلى بفكره المعانى العامة.

أما الثانية فلا يصل إلى سرها إلا من أوتى حظا وافرا من العلم بأسرار الموجودات.

٤- وفى القرآن الكريم قضايا مستنبطة من النص :

مثل قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ [الطلاق].

وقال تعالى عن مادة السماء : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت].

ويستنبط من قوله تعالى : ﴿ وهى دخان ﴾ ..

إن السماء كانت مادة دخانية، وأنه تعالى كونها وخلقها منها.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح].

وقال تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) ﴾ [النبأ].

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ [يونس].

فشبه الشمس بلهب السراج المضىء المتقد، فاستنبطنا من هذا التشبيه الواضح المحدد : أنه تعالى خلق الشمس لهبا متقدا مضيئا، أى كتلة غازية متقدة مضيئة، لأن اللهب المضىء عبارة عن مواد فى الحالة الغازية، وفى درجة حرارة عالية، بحيث ينبعث منها الضياء.

٥- وفى القرآن الكريم قضايا مستنبطة من إشارات فى النصوص :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت].

فشبه الله تعالى السماء بالدخان، فيكون فى تخصيص تشبيهها بالدخان إشارة قوية محددة إلى أهل العلم يستدلون بها على خصائص المادة، وهى أنها كانت مظلمة وساخنة إلى حد ما، وأنها تحوى دقائق أنواع المادة المختلفة.

وقال أيضا فى وصف السماء وتكوينها : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات].

وقال تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) ﴾ [النبأ]

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح].

وأن لفظ النور أو مشتقاته لم يستعمل فى القرآن إلا للضوء المكتسب، فجاء بذلك إشارة محددة واضحة إلى أن ضوء القمر مكتسب معكوس، وأنه كوكب مظلم بنفسه كالأرض.

والخلاصة :

تستنبط القضايا والحقائق العلمية المقررة فى القرآن الكريم، أما من صريح نصوص الآيات، أو بالربط بين الآيات فى حدود معانى ألفاظها، فتتضح معلومات يقينية يعلمها العلماء، فهى إذن أنباء يقينية تامة عن الكائنات، أتى بها القرآن الكريم من لدن الله تعالى العليم الحكيم لكى يزداد بها إيمان المؤمنين بقدرة الله، وأنها موحى بها، ثم ليدعوا غيرهم للإيمان بالله تعالى الواحد القهار.

٦- وفى القرآن الكريم قضايا أخرى :

تستنبط هذه القضايا، إما من صريح النصوص، أو إشارات فيها مثل خلق السماوات.

قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾ [الفرقان].

فالبروج فى اللغة هى الأجزاء الحصينة المرتفعة فى البناء على كل ماعداها، وبمثابة أركان متينة فى البناء ، تحفظ عليه تماسكه.

كما بين الله تعالى أنه خلق فى السماء النجوم والكواكب فى مواقع كثيرة منها.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾ [الفرقان].

أى جعل فى بروج السماء الشمس والقمر، وإذ المعلوم أن الشمس والقمر يلازمان الأرض، وهذا يفيد أنه تعالى جعل من بين بروج السماء مجموعة الشمس والقمر، وما قد يوجد من أجرام أخرى مثلها.

٧- وفى القرآن قضايا تحمل معان كثيرة :

وها نوع من القضايا القرآنية التى تقوم على صريح النص الذى يحتمل أكثر من معنى واحد، وليس فيه قرينة ترجح معنى على آخر مثل

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾ [الفرقان].

والتقدير له معنيان : أولهما : جعل الشىء بقدر معين.

كقول تعالى : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق].

أى أنه تعالى جعل كل شىء بقدر معين .

والثانى : يعنى اكتساب القدرة على العمل كقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) ﴾ [الطارق]

والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن الكريم منها قوله تعالى عن نظام خلق العالم فى

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء].

وهذه الآية الكريمة لها معنيان محتملان.

ومع سوقنا لبعض أمثلة الارشادات التى يزخر بها القرآن الكريم والتى ترشد العلماء والمؤمنين إلى تدبر آيات الله وامعان النظر فى حكيم صنعه .. فمع ذلك فالقرآن أولا وأخيرا كتاب دين الإسلام الذى يتناول مظاهر الحياة جميعها فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة أو خلق وقوة، رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة سليمة سواء بسواء ... وجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل.

الفهرس

الموضـــوعـات	صفحة
المقدمة .	٣
أولا : الاعجاز العلمى وتاريخه .	٥
الألفاظ المرادفة لهذا المصطلح.	٨
التتبع التاريخى لاستخدام المعجزة والإعجاز .	١٠
تعريف المعجزة والإعجاز فى اللغة والاصطلاح ومدى مطابقة ذلك للمعانى الواردة فى القرآن الكريم .	١٣
الخلاصة .	١٤
ثانيا : ضوابط الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة .	١٧
تعريف الحقيقة العلمية وشروطها .	١٧
تعريف الفرض والنظرية .	١٨
ضوابط استخراج وجهة الإعجاز بين النص والحقيقة.	١٩
التفسير فى اللغة والاصطلاح .	٢٤
التفسير العلمى .	٢٥
حكم التفسير العلمى .	٢٥
أصول التفسير المتفق عليها عند علماء المسلمين.	٢٦
الفرق بين التفسير العلمى والإعجاز العلمى .	٢٨
قصة الخلق .	٣٠
خلق الإنسان .	٤٧

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
خلق الكون .	٥٤
خلق السموات .	٥٧
اقرأ وتدبر ليطمئن قلبك.	٦٠
تذكير .	٧١
الخلاصة .	٧٥
الفهرس .	٧٩